أفكار حول خطورة التطبيع الثقافي على القضية الفلسطينيّة ومستقبل النضال القومي

د. عبدالله أبو هيف

(سوريا)

- ١ -

التطبيع سياسة ثقافية تهدف إلى جعل ما هو غير طبيعي طبيعياً برضى أو بغير رضى. وغالباً ما يكون التطبيع عنصرَ ضغط وإكراه وإرغام يمارسه القوي على الضعيف ليقبل ما لا يقبله عادة. والتطبيع هو محاولات تغيير الطبع، وهي عملية باهظة الثمن وخطرة على سلامة من يغيِّر طبعُهُم، هذا في مجال الفرد، فكيف، في مجال الأمم والشعوب والأوطان؟

ويواجه الأطباء النفسيون والمربون صعوباتٍ فائقة في تعديل السلوك وتحويل الطباع، والنتيجة غالباً هي المرض وإنتاج نموذج مشوّه، فيه من الاعوجاج أكثر مما فيه من السلامة. لذلك ينصح المعالِجون مرضى انحراف الطباع بالمقاومة وتدعيم جهاز المناعة الذاتي.

ومن هذا الباب، تصبح مصطلحات سياسة التطبيع وثقافة التطبيع والثقافة المقاومة أكثر وضوحاً. إن التطبيع هو قبول الآخر (العدو) والتعامل معه على أنه أمر طبيعي، وهو تبديل النظرة إلى الباطل ليكون حقاً، والعبث بمجرى التاريخ ليكون مقبولاً، بإخضاع إرادة الطرف الضعيف لمصلحة الجهات الضاغطة بتأثير متغيرات دولية خارجية أو استلاب ذاتي داخلي.

ويواجه العرب اليوم التأثيرَيْن معاً: المتغيرات الدولية الخارجية والاستلاب الذاتي الداخلي. وقد ساهمت جريمة احتلال الكويت وحرب الخليج بمضاعفة هذين التأثيرين، فأصيب التضامن العربي - ناهيك بحلم التوحيد والوحدة العربية - بانتكاسة مريرة جزّأت الموقف العربي وشتتت القوة العربية، ووضعت الأمن القومي الواحد في مهبّ العواصف، مثلما أورثت المتغيرات الدولية خسارةً كبيرة للعرب بالخلل السوفييتي الذي كان قوة مساندة للعرب وتطلعاتهم المشروعة. وربما تضاعفت هذه التأثيراتُ سلبيةً وخطراً في ظل الاستلاب الذاتي الداخلي العميق، حيث يهدم بعض العرب أنفسهم جهازَ مناعتهم، ويرمون بعناصر قوتهم في المقامرة والحسابات الخاطئة ويهدرون الإمكانية العربية برمتها.

لقد قادت مأساة احتلال الكويت أيضاً إلى ما نشهده اليوم من انتعاش سياسة التطبيع وخمول ثقافة المقاومة، بينما كان واضحاً وجلياً ومتفقاً عليه بين القوى القومية والوطنية العربية أن التطبيع هو فعل مضاد ومعادٍ للوجود العربي برمّته، وأن قيام جبهة ثقافية عربية لمواجهته هو السبيل الأمثل لتصليب الإرادة القومية والسعي المشترك لتكريس الثقافة القومية في جوهرها الإنساني والتقدمي والنضالي ضد التخلف، وضد التزييف والتضليل، ومن أجل الحقيقة ومسؤولية التكوين الإنساني النبيل.

يجب ألا تغرّنا وطأةُ المتغيرات الدولية المتلاحقة، وألا تعمينا عن رؤية الفعل القومي السليم في الوقت السليم. لقد مرَّ العرب بظروف أقسى ومحنٍ أشدَّ ولم يستسلموا لأعدائهم. والتطبيع اليوم هو غاية الاستسلام، ولا بد من مواجهته في تدعيم ثقافة المقاومة التي تعني بناء الإنسان وبناء الوطن قبل كل شيء.

وفي ظروف المفاوضات التي بدأت أولى جولاتها في مدريد أواخر ١٩٩١، ندرك مغزى إصرار العدو على ربط المؤتمر بالترتيبات في المنطقة، مثل التطبيع والأمن واقتسام المياه والثروات الطبيعية وغير ذلك. وهو ما جرى فيما بعد في المفاوضات المتعددة الأطراف.

وحسناً فعلت سورية بموقفها الصلب والواضح. فالمؤتمر يبحث في تطبيق الشرعية الدولية، وقوانينها الجديدة - كما يفترض ضمانة

للسلام في منطقتنا، وجناحا هذه الضمانة الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، وإحقاق حقوق الشعب العربي الفلسطيني. ومن الواضح أن العدو لا يقبل بقوانين الشرعية الدولية، وهو يضع العراقيل أمام تنفيذها حتى في المفاوضات التي طالما انتظرها، ولم يكن أحد ليتوقع انعقادها بهذه السرعة.

وهكذا يبدو «التطبيع» شكلاً من أشكال قبول العدوان والرضوخ والاستسلام، وعلى العرب أن يدركوا مآل مصالحهم القومية في ما يجري ترتيبه من أوضاع جائرة بحقهم.

- ٢ -

إن حديث «التطبيع الثقافي» شديد الاتصال بحديث «الغزو الفكري والثقافي»، وما سيرة فكر النهضة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر إلا سعي محموم للأصالة الثقافية في مواجهته بـ الغرب واستعلائه، وهو غربٌ حل في وجدان المثقف العربي «عدواً نهماً إلى الاستعمار والاحتلال والنهب والاستغلال؛ وهذه هي ممارسة الغرب في الوطن العربي.

وقد مهد لعدوان الغرب على العرب ورافقه غزو فكري وثقافي منظم منذ **وصف مصر** الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية، إلى مئات محاولات وصف العرب فيما تلا ذلك.

أجل، هناك غزو ثقافي صهيوني، نستطيع أن نلمس ملامحه في الفكر والأدب والفن والإعلام والتربية والتعليم. وكان حشد كبير من المفكرين والأدباء والكتاب العرب قد ناقشوا، في ندوة كبيرة عقدت بتونس عام ١٩٨٢، ملامح هذا الغزو الصهيوني الإمبريالي على الثقافة العربية. إن ثمة إجماعاً على خطورة هذا الغزو، ولاسيّما خلال العقود الأربعة الأخيرة منذ قيام التحالف الأميركي الصهيوني في نهاية الأربعينات. وقد زاد من خطورته على العقل العربي خلال السبعينات والثمانينات ذلك الانقسامُ العربي بتأثير اتفاقيّات كامب ديفيد عام ١٩٧٨، لأنَّ الغزو الثقافي لا ينشأ في فراغ، بل هو وليد ظروفه التاريخية، ولأن الغزو الثقافي نتاج معقد لآلية التأثير الثقافي السلبي، فهو نتاج ظاهرة التبعية والتضليل وتزييف الوعي، ويجد أفضل مناخاته في الانعزالية والعدمية وتكريس الفئوية والطائفية والإقليميّة محل الوطنية والانتماء الوطني والقومي.

ثم انتعش الغزو الثقافي مع الأدوار المختلفة «للحرب الباردة وبرامج حرية الثقافة» وفي تأجج الصراعات العربية ـ العربية في مصالح غير مصالح العرب، ومن أجل أمن غير أمنهم. وارتهنت جهود مفكرين وسياسيين وأدباء عرب كثيرين للغرب باسم أوهام الحرية والتحديث والتحضر و«الفرانكوفونيّة»، وما لحقها من تدخلات مباشرة وغير مباشرة في السياسة العربية، حياة وثقافة ووجوداً، وفي صلبها الموقف الفرنسي العدائي المزمن من انتماء لبنان العربي، و«حوار الآخر المتقدم» دعوة لتنضيج العقل العربي، واذكاء للحوار الحضاري بين العرب وأعدائهم. ولا شك أن مثل هذه الأدوار لا تصب إلا في التبعية من جهة، وفي التضليل وتزييف الوعي من جهة أخرى. ولعل من أبرزها شيوع النمط الاستهلاكي الثقافي الذي يروج لقيم مجتمع غير أصيل، مجتمع تابع يفتقد أسباب مناعته القومية. هذا على نحو غير مباشر، أما على نحو مباشر، فليس «التطبيع» وهو معركة الثقافة العربية الراهنة من أجل المستقبل العربي، إلا أبرز ملامحه.

أما المطلوب لمواجهة هذا الغزو، من المثقف العربي والأديب العربي، في هذه المرحلة، فهو كثير. ونؤكد في الوقت نفسه على أن المسؤولية جماعية وقومية شاملة، وعلى رأس من يجب أن يتحملها النخبُ القومية أو الطليعة الثقافية القومية، من سياسيين وعسكريين ومفكرين وفنانين وأدباء وأصحاب قرار من القوى الاجتماعية الفعالة.

والحق أن ازدهار الثقافة القومية مرهون بتجليات الممارسة القومية في إطارها السياسي العربي، لكونها تعبيراً صادقاً عن أحلام الجماهير العريضة في الوحدة القومية والتقدم. وقد عكس تراجعُ الخطاب القومي العربي في العقود الثلاثة الأخيرة الأزمةَ المستحكمةَ في حركة التحرر العربي، الأمر الذي وسّع النشاط الثقافي التخريبي المعادي للأمة العربية، وأتاح للقوى المعادية فرص الغزو الثقافي الإمبريالي الصهيوني. وهذا بحدّ ذاته يستدعي منا جميعاً دراسةَ ظاهرة التبعية الثقافية والإعلاميّة بالتفصيل، لأنها أساس الدعوة إلى التطبيع وانتشار عمليات الغزو الثقافي الصهيوني. ولدى رصد حجم المؤامرة الإسرائيلية على العقل العربي في مصر، نجد أن الغزو الثقافي لأمتنا ليس وهماً وليس تهويلاً، وقد برهنت الأسرار والوثائق الكثيرة المحاولاتِ المستميتة للتطبيع السياسي والاقتصادي والثقافي بين مصر والعدو الصهيوني.

إن المهمة الدائمة للمثقفين والأدباء العرب هي مقاومة الغزو الثقافي، وفضح أساليبه والكشف عن مخاطره على الوجدان والعقل، وتعرية التبعية، وحماية الثقافة الشعبية في أصالتها وحيويتها وسيرورة تقاليدها، وتجذير العمل القومي والوحدوي على امتداد الساحات العربية.

- ٣ -

في أيلول الفائت، وبعد أكثر من ثلاثة عشر عاماً على معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ١٩٧٩، رفض أدباء الأقاليم في مصر

التطبيعَ الثقافي مع اسرائيل، وذلك في مناقشاتهم الساخنة مع فاروق حسني وزير الثقافة خلال المؤتمر السابع لأدباء الأقاليم بالإسماعيلية. وعلى الرغم من دفاع الوزير عن التطبيع الرسميّ - إذ تلتزم مصر باتفاقيات سياسية مع إسرائيل أمام المجتمع الدوليّ - فإن الأدباء حيّوا في توصياتهم الإجماع الثقافي المناهض للتطبيع مع إسرائيل، وأهابوا بالمؤسسات الثقافيّة والشعبيّة أن تناهض وسائل التطبيع وصوره مع العدو الإسرائيلي، ودانوا محاولات الحكومة للتطبيع الذي يتم بشكل غير مباشر في المهرجانات الفنية التي تقام خارج مصر في بعض الدول الأوروبية. وكان جوهر رأي الوزير أن لا تطبيع ثقافياً وفنياً مع إسرائيل حتى الآن، ولكنه قادم لامحالة، وأنّنا يجب ألّا نخشى التطبيع، وطالب الأدباء بأن يكون موقفهم متحضراً وواعياً وواقعياً. أما جوهر رأي الأدباء فكان أنهم ضد الكيان الإسرائيلي لقيامه على فكرة عنصرية ضد الثقافة وضد الإنسانية.

إن هذه الواقعة تفصح عن قضية التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني برمتها. فالتطبيع هو غاية الإستراتيجية الصهيونية استكمالاً لوضع المشروع الصهيوني على الأرض من جهة، وهو غاية الإستراتيجية الأمريكية في المنطقة العربية استكمالاً لأحكام التبعية الأمريكية وسيطرتها على العالم من جهة أخرى. وفي وعي مخاطر التطبيع على الوجود العربي كان فشل التطبيع في مصر على الرغم من الالتزام الرسمي به وتشجيعه والعمل له. فقد جاوزت نصوصُ الاتفاقيات التي توصلت إليها «إسرائيل» مع الحكومة المصرية منذ عام ١٩٧٨، الرغبةَ في إلغاء حالة العداء، إلى إعادة صياغة العقل العربي، وفق الأساس الأيديولوجي الصهيوني، والقبول بالتفسير العدواني العنصري التوسعي للأسطورة التوراتية. ونذكر من أهداف إستراتيجية الغزو الفكري الصهيوني، ما التقت عليه تنظيراتُ مراكز البحوث العلمية في إسرائيل، لتشكّل برنامجاً لهذه الإستراتيجية يدور حول المحاور التالية:

- ضرورة فتح الحدود أمام حركة الناس، وتبادل المعلومات والثقافة والعلوم، وأن تكون هناك صلة إنسانية وطبيعية وتلقائية.

- ضرورة مراجعة البرامج الدراسية في كلا الجانبين - مراجعة شاملة - وفحص ما يُدَرَّس في مصر عن إسرائيل، وما يُدَرَّس في إسرائيل عن مصر والعرب، وتحديد ما يجب «حذفه» من برامج التعليم الحالية، وإضافة المواد الجديدة «المرغوب» في دراستها.

- دراسة البرامج المتبادلة في وسائل الإعلام، خاصة الإذاعة أو التلفزيون، وأن يسمح كل جانب بأن يدفع في وسائل إعلام الجانب الآخر، برامجَ ثقافية عن وثائقه وتاريخه.

- تغيير موقف الزعماء من ثقافة الجانب الآخر وتاريخه، لما لذلك من تأثير قوي وتعليمي على الجيل خاصة إذا ما تداخلت تلك الثقافة وذلك التاريخ مع المتغيرات في البرامج الإذاعية[1].

- ضرورة إزالة «المفاهيم السلبية» تجاه إسرائيل في الإسلام والأيديولوجية القومية العربية.

لقد اندغمت هذه الإستراتيجية الصهيونية مع الإستراتيجية الغربية، ولاسيّما الأمريكية منذ الستينات على صورة غزو فكري أمريكي منظم جعل من «اسرائيل» امتداداً لأمنها القومي الكوني الشامل[2]، ويستدعي ذلك التفوقَ الإسرائيلي العسكري على العرب جميعاً، مثلما يستدعي تهديمَ النظام العربي وتفتيتَه وإلغاء روابطه الوثيقة، وأهمها الهوية الثقافية التي تشكل الأمان للانتماء ومعنى الوجود وإرادة الدفاع عنه. وهكذا، وُصف التطبيع خيرَ وصفٍ، حين سُمّي تسميات متعددة تشي بمخاطره الجسيمة: فسمّي اختراقاً إسرائيلياً للعقل المصري، وسمّي تهويداً للعقل المصري، وسمّي غزواً ثقافياً أمريكياً لمصر[3]، ثم ربط بعض الباحثين التطبيع بعد ذلك بالإستراتيجية الأمريكية الصهيونية لاحتلال العقل العربي واحتلال الأرض العربية معاً. ويطرح أحد الباحثين العرب في مصر، ممن تخصصوا في بحث التطبيع، أسئلةً ساخنة ماتزال راهنة:

---

(١) عرفة عبده، علي: **تهويد عقل مصر** (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٨٩، ص ١٤)

(٢) تتردد هذه الفكرة في غالبية الكتب التي صدرت عن التطبيع بين مصر و«إسرائيل» ونذكر منها:

- عادل حسين: **التطبيع، المخطط الصهيوني للهيمنة الاقتصادية** (القاهرة وبيروت: مكتبة مدبولي، دار ازال، ط ٢، ١٩٨٥).
- محسن عوض: **مصر وإسرائيل، خمس سنوات من التطبيع** (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٦).
- حازم هاشم: **المؤامرة الإسرئيلية على العقل العربي المصري - أسرار ووثائق** (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٦).
- رفعت سيد أحمد: **اختراق العقل المصري - دراسة ووثائق** (القاهرة: التوني للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٦).
- رفعت سيد أحمد، **الثقافة الوطنية المصريّة في ظلّ التطبيع - الظروف والسمات، في مجلّة المعرفة** (دمشق) السنة ٣٠، ع ٢٧٨، كانون الأول ١٩٨١، ص ٨٠ وما بعدها.
- رفعت سيد أحمد: **علماء وجواسيس - التغلغل الأمريكي الاسرائيلي في مصر** (لندن: ريص الريس للكتب والنشر، ١٩٩٠).
- عرفه عبده علي: **تهويد عقل مصر - قبل أن تفكر مصر بعقل صهيوني أميركي** (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٨٩).

(٣) انظر الهامش السابق.

المعركة الآن مع التغلغل الأميركي والإسرائيلي لمصر، لدينا أوراقنا وأدلة الاتهام، ولدينا أمة غافلة تبحث عمن يوقظها، ويبعث فيها الروح لمواجهة ما يتصوره البعض (ثوابت) و(مسلمات) فمن لهذه المهمة؟ من لمواجهة الاختراق الثقافي الأميركي والإسرائيلي لعاقلنا العلمية والفكرية؟ من بإمكانه أن يعيد ترتيب البيت العربي من الداخل ويعيد وضع (المشاة) قبل (المدفعية الثقيلة) وليس العكس؟ مَن لـ «٣٦» مؤسسة علمية (!!) أميركية تعمل في مصر منذ عام ١٩١٩ وحتى اليوم دون رقيب؟ من لـ «٦» مراكز ومؤسسات ثقافية (!!) إسرائيلية بمصر؟ ومن لـ «١٥» مؤسسة ألمانية وفرنسية وأوروبية تعمل في مجال العمال والتعليم والإعلام وجمع المعلومات السرية في مصر دون رقيب، وفي غيبة حقيقية لسياسة قومية مصرية تعيد دمج نشاط (الآخر الغربي) وتوظيفه من أجل الوطن وليس ـ كما هو حاصل بالفعل ـ ضد الوطن؟[٤]

إن الكتب التي تناولت التطبيع في مصر كثيرة، وقد بيَّنت جميعها مخاطره على مصر وعلى النضال العربي حتى إن باحثاً وضع عنواناً آخر لكتابه هو **قبل أن تفكّر مصر بعقل صهيوني أمريكي**[٥]. ولعلنا نتابع إثارة الأفكار حول التطبيع، فهو ليس وليد السبعينات كما يبدو للوهلة الأولى. بل إنَّه نتاج التصادم الحضاري العربي مع الغرب الاستعماري، وهدفه دائماً واحد، وهو احتلال العقل تمهيداً لاحتلال الأرض، أو العكس، وغالباً ما تداخلت عمليتا الاحتلال لَمْحوِ الذات القوميّة.

- ٤ -

لقد كانت معاهدة الصلح مع العدو الصهيوني عام ١٩٧٨ موجَّهة بالدرجة الأولى إلى سلخ مصر عن محيطها العربي، وتدمير الجهاز الذاتي للأمّة العربية من خلال نسف ذاكرتها العربية، وضرب وجدانها القومي، وإعادة تكوين بنية مختلفة لفكرها السياسي وممارستها السياسية إحياء للانعزالية (الفرعونية وتيارها الإقليمي) وتشكيكاً بالقومية العربية ووحدة أمتها. ومن نافل القول التوكيد على أن النزعة الانعزالية والإقليمية، سواء في الأدب أو الفكر أو السياسة، تعني «نقض المشروع الوحدوي وصولاً إلى كيانات إقليمية متعددة، لكلّ منها استقلالُها الخاص المميز، مع الاجتهاد المصطنع من أجل البحث عن خصائص متميزة لكل كيان وإقليم»[٦]؛ أي أن ضرب فكرة الوحدة وتحققاتها العملية يعني ضرب المشروع القومي العربي. وإذا كان للأدب دوره الكبير والفاعل في تكريس المشروع الوحدوي، فإن «ثقافة التطبيع» وما يستتبعها من ظواهر «أدب الثورة المضادة»، هي الأخطر في زمن المواجهة مع العدو الصهيوني، وهي الأخطر في عملية تقدم الشعب العربي نحو غاياته وتحقيق أهدافه المشروعة في الوحدة القومية التي هي السبيل للتقدم في مختلف الميادين. لقد تنبهت سورية مبكراً لهذا الخطر الداهم، فعقدت المؤتمر الاستثنائي لوزراء الثقافة العرب بدمشق عام ١٩٧٩ لمواجهة ثقافة التطبيع والغزو الصهيوني لأكبر معقل ثقافي وتربوي عربي في مصر. على أن مهمات مثل هذا المؤتمر راهنة وملحة ومستمرة في التصدي لثقافة التطبيع ومخاطر الغزو الثقافي الصهيوني ومواجهة التيارات الانعزالية والإقليمية. وعلى الرغم من المجهود الأدبي المبذول في هذا الاتجاه من قبل بعض التنظيمات القومية والشعبية والثقافية والأدبية، فإن عملاً منظماً في ميادين السياسة والتربية واللغة والفكر والإعلام مايزال ملحّاً تأصيلاً للثقافة العربية، ولاسيما عناصر المقاومة فيها، وإشاعة للقيم التربوية النضالية المستندة إلى حقائق راسخة ووعي مكين.

تندرج مهمّة التطبيع في قولبة العقل العربي وتكييفه لمتطلّبات الخضوع والخنوع، وفي إدغام الإمكانيّة العربيّة برمّتها في عائد «العدو» أرضاً وماءً ونفطاً واقتصاداً وفضاءً وبشراً، وما يُسمَّى بالأمن أيضاً.

إننا نجد كثرة كثيرة اليوم في الساحة الثقافية العربية من دعاة الانعزالية والإقليميّة وروَّاد أدب الردّة، أدب الثورة المضادة، في مصر ولبنان والعراق وتونس والمغرب على وجه الخصوص، ممن ينادون «بالأمة المصرية» أو «الأمة التونسية»، ويهيئون داخلياً في أقطارهم، للتشرذم الديني أو العرقي أو الجغرافي أو الفئوي، كما هو الحال في شعار «مصر للمصريين»، أو تقسيم لبنان باسم «التعددية الطائفية». والتضليل الواحد لهذه الدعوات الانعزالية والإقليمية هو تكريس وعي زائف ومفاهيم مغلوطة من شأنها أن تدمر الحصانة العربية الفكرية والثقافية الذاتية، وأن تعوق العمل الوحدوي والقومي.

وقد نمّى هذه التيّارات الانعزاليّة والإقليميّة في مصر مناخُ التطبيع. ذلك أن الفرعونية، على سبيل المثال، من أقدم الدعوات الانعزالية وأهمها، ولها جذورها التطبيقيّة في فكر الانعزاليين

(٤) **علماء وجواسيس** ص ١٢.

(٥) كتاب **تمهيد عقل مصر** الذي سبق ذكره.

(٦) أبو مطر، د. أحمد: **أفكار حول مواجهة الانعزالية في الأدب في مجلة المعرفة** دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٥، ص ٥ ـ ١١.

السياسيّين والمفكّرين والأدباء منذ معاهدة ١٨٤٠، وارتفع صوتها مع أحمد لطفي السيد وأمين الخولي وإبراهيم جمعة ومحمد عبدالله عنان وتوفيق الحكيم ومحمد الأسمر وغيرهم. ولكن مصر عبد الناصر وثورة تموز ١٩٥٢ كانتا الضربة القاضية للتيار الانعزالي[٧]. ثم جاءت اتفاقيات كامب ديفيد إطاراً رحيباً لمفكري هذا التيار الذين كانوا أول من استجاب لثقافة التطبيع.

يتفق معظم الدارسين والكتاب القوميين والتقدميين في مصر على أن:

> **أدب الثورة المضادة هو أدب الردة والرجعية المضادة لأدب الثورة، والمعاكس للثورة ومنجزاتها الاجتماعية والسياسية والفكرية. يستهدف أدب الثورة المضادة عقل الشعب وروحه وثقافته وتراثه الثوري والفكري، فيقوم بغسيل المخ ويحاول «قولبة» الإنسان الغربي في مصر وتطهيره من فكر الثورة ومن ثم بث القيم المضادة للثورة وإعادة تشكيل وعيه في الاتجاه المضاد لها، وذلك من أجل تصفية ثورة تموز وقيمها ومنجزاتها، ولتحقيق عزل مصر عن أمّتها العربية، والانفراد بها، وتمزيق الوطن العربي وتشويه القادة ورجال الفكر والثقافة بغية تيئيس الشعب من إمكانية إفرازه لقادة جدد من بين صفوفه، والثأر من المنجزات الثورية والعقلانيّة والديمقراطية التي حققتها الثورة العربية عبر تقدمها بمصر. كما يبتغي أدب الثورة في مصر تهيئة الأذهان لتقبل التطبيع المصري ـ الإسرائيلي عن طريق التبشير بالتآخي والصداقة مع إسرائيل وتحسين صورة اليهودي في الأدب والفن، وتشجيع التبادل الثقافي المصري الإسرائيلي[٨].**

واستخدم هذا الأدب ظواهر الردة الثقافية والإرهاب الفكري وتصفية الحسابات القومية والوحدوية، وأفرز مجموعة أباطيل وتحريفات مضللة نذكر منها ما يلي[٩]:

١ ـ كان أوّل ما طرحه إعلام السلطة ـ بعد التوقيع على اتفاقيتي كامب ديفيد ـ أن مصر التي حاربت منفردة ثلاثين عاماً من أجل فلسطين، من حقها أن ترتاح، كي تحقق الرخاء والثراء اللذين حققهما العرب الآخرون الذين لم يحاربوا. وقد تصدّى كتّاب عرب مصريون لهذه الأكاذيب، وبيّنوا أن مصر كانت في حرب ١٩٤٨ دولة من بين سبع دولة عربية محاربةٍ أخرى؛ وأما حرب ١٩٥٦ فلم يكن للقضية الفلسطينية علاقة بأسبابها من قريب أو بعيد، لأن تأميم قناة السويس هو السبب الأساسي لذلك العدوان؛ وأما حرب ١٩٦٧، فقد فرضتها الإمبريالية الأمريكية على مصر عبد الناصر، مستخدمة أداتها في المنطقة العربية ـ كيان العدو ـ لتقزيم دور عبد الناصر في الوطن العربي[١٠].

ثم أظهرت الوقائع والإحصاءات أن العقود الثلاثة (١٩٤٨ ـ ١٩٧٣) التي كانت سنواتِ مواجهة مع الإمبريالية والصهيونية، لم تجلب لمصر التخلف والضوائق الاقتصادية، في حين أن العقد السابق (١٩٧٣ ـ ١٩٨٣) من السلام المزعوم لم يجلب لها الرخاء المزعوم.

٢ ـ يرد إعلام السلطة وكتّابها في مصر كذبة الأمر الواقع والحاجز النفسي حول وجود العدو على أرض فلسطين. غير أن حقائق التاريخ، ولاسيما جانبها النضالي، قد أكّدت عدم الاعتراف بالأمر الواقع الذي يقوم على حساب حقوق تاريخية لشعوب أصيلة الحياة والامتداد على أرضها.

٣ ـ حاولت الأقلام التي أيدت اتفاقيتي الصلح مع العدو الصهيوني أن تنظر إليهما على أنهما خدمة لحركة السلام، وأن السلام من صفات الشعوب المتحضرة، أما الأقوام المتخلفة فهي التي تدق طبول الحرب وتدعو إليها. ومثل هذا التدجيل لا يستحق مجرّد التفنيد، لأن الصراع الدائر في المنطقة العربية ليس صراعاً بين «متحضرين» و«متخلفين» (حسب منطق «حياد مصر» الذي يروِّج له التيَّار الانعزالي)، وإنما هو صراع بين قوى التحرروالاستقلال من جهة وقوى التسلط والاستعمار من جهة ثانية. كما أن الرصيد الحضاري للفرد والوطن، يحفزهما للثبات والتصدي، حفاظاً على هذا الرصيد الحضاري، والاستمرار في تنميته، لا الرضوخ والاستسلام لقوى العدوان التي تهدف لهدر هذا الرصيد الحضاري، لاستعباد الشعوب واستغلالها.

٤ ـ من مغالطات أدب الثورة المضادة أن مصر ظلت تحارب ثلاثين عاماً نيابة عن الأمة العربية، فلحق الشعبَ المصريَ الخرابُ والدمار الاقتصاديان، في حين حقق الشعب العربي في الأقطار الأخرى الرخاءَ والرفاهية. وقد ركزت وسائل الإعلام الرسمية على هذا المحور، بضراوة شديدة، عقب وضوح الرفض العربي لاتفاقيتي

(٧) المرجع السابق.

(٨) عطية، أحمد محمد: «أدب الثورة المضادة» في كتاب **قضايا عربية** بإشراف: د. أنيس صايغ ـ **عبد الناصر وما بعد** (بيروت: منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ص ٣١٦.

(٩) أبو مطر، د. أحمد: **الثقافة الوطنية المصريّة في ظلّ التطبيع ـ الظروف والسمات**، في مجلة **المعرفة** (دمشق) السنة ٣٠، ع ٢٧٨ كانون الأوّل ١٩٨١، ص ٨٠ وما بعدها.

(١٠) انظر على سبيل المثال: أحمد، محمد سيد: **مصر بعد المعاهدة** (بيروت: دار الكلمة، ١٩٨٠)، عبد الرزاق حسين: **مصر في ١٨ و١٩ يناير** (بيروت، ١٩٨١).

كامب ديفيد. وقد وصلت تلك الضراوة إلى حدّ استعداء المصريين على العرب. وهذه أكاذيب تهدف إلى استغلال عواطف الجماهير العربية في مصر؛ فليس صحيحاً أن الشعب المصري في حربه وتصديه للعدو الصهيوني، طوال ثلاثين عاماً، كان يحارب نيابة عن الأمة العربية، لأن غالبية هذه الحروب كانت دفاعاً عن مصر نفسها التي أصبحت هدفاً للإمبريالية والصهيونية، منذ استقلال خطها عن المعسكر الغربي، ونضوج التيار العربي التقدمي في سياستها في عهد عبد الناصر؛ وليس صحيحاً أن الشعب العربي في الأقطار العربية الأخرى كان في السنوات الثلاثين الماضية، يعمل من أجل الثروة والرخاء، متناسياً الشعبَ في مصر وضوائقه الاقتصادية، إذ إنَّ الكثير من الأقطار العربية كانت تقوم بمهمات نضالية لتحقيق استقلالها الوطني عبر النضال السياسي والمسلح (كما في تونس والجزائر وعدن)، وكان بعضها الآخر يتصدى للعدوان الإمبريالي الصهيوني (كما في سورية)، أما فيما يتعلق بأقطار الخليج والجزيرة العربية التي تميَّزت بثراء ورفاهية مميّزتيْن ـ نتيجة تفجّر النفط في أرضها ـ فهي تشكل الاستثناء لا القاعدة.

وضمن هذه الحجج الباطلة وعملية تزييف الحقائق، وتجاهل أهمية البعد العربي والنضالي لمصر، كان التيار الانعزالي يعلن عن وجهه القبيح وصوته «النشاز». وقد واكب أجهزةَ إعلامه وسياساته الثقافية والتربوية الرسمية أدبٌ مضادٌّ يروّج لما تردّده هذه الأجهزة والسياسات، فيدخل أدب الثورة المضادة في معارك ثقافيّة هي ارتداد عن منجزات الثورة السياسية والعقلية والعلمية، وهي هجمة شرسة على الفكر القومي والوحدوي. ففي الارتداد نعاود الإشارة إلى أدب ثروت أباظة المعبر عن فكر النظام القديم وقيمه، وهو فكر وقيم أطاحت بها ثورة تموز، ونشير كذلك إلى الحملة الجديدة على طه حسين ودوره التنويري في تحديث العقل العربي، ونشير إلى قصص إحسان عبد القدوس عن اليهود وتهيئة الأذهان لتقبل الصداقة المصرية الصهيونية والتبادل الثقافي المصري الإسرائيلي[11]. وفي الهجمة الشرسة على الفكر القومي والوحدوي نشير إلى تشويه بعض رموز التراث العربي مثل **الفتوحات المكّية** لابن عربي و**ألف ليلة وليلة** والتنكّر للطابع القومي العربي للثقافة العربية الإسلامية، ومحاولة تشويه الوحدة العربية بين سورية ومصر عام ١٩٥٨[12].

لقد أراد السادات أن يبرهن أن الصراع العربي الصهيوني هو صراع حدود لا صراع وجود، وهذا هو دأب أعداء الأمة منذ زُرع الكيانُ الصهيوني الغريب في قلب الوطن العربي، فكانت فيما بعد زيارة القدس واتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح مع العدو الصهيوني تكريساً لواقع مختلف في ظل «دعاوى» و«طروحات» زائفة لا تصادر وعي العرب أو ذاكرتهم فحسب، بل تتعدى ذلك إلى نزع أسباب النضال لتحقيق أهدافهم المشروعة في بناء الدولة العربية الواحدة الحرة المستقلة، أي مصادرة حق الأجيال القادمة في الدفاع عن الوجود القومي الحر فوق الأرض العربية، والقول بالكيان الصهيوني والتبعية الإمبريالية بمثل هذه الحجج الواهية الكاذبة التي تنتقص من قدرات الأمة العربية ومقدراتها، ومن العقل العربي والإنسان العربي.

وما كشفت عنه حوارات ندوة صنعاء لدعم الانتفاضة (١١ ـ ١٤ حزيران ١٩٨٨) من دعوات للحوار الحضاري مع عناصر من الكيان الصهيوني و«تنضيج» العقل العربي ليرتفع إلى المستوى الحضاري المناسب، إلى آخر ذلك من الدعوات التي تصب في العدمية القومية وإلغاء الذات، إنْ هو في جوهره إلاّ استمرار لمسار «التطبيع» وفتح الباب واسعاً للغزو الثقافي الغربي وللتبعية الإمبريالية والصهيونية.

إن من أولى مهمات النضال العربي اليوم مواجهة ثقافة «التطبيع» التي كانت إحدى نتائج اتفاقيات كامب ديفيد في شكلها الراهن. وما هذه الدعوات التي تُطرح بدم بارد إلا غزو داخلي على الثقافة العربية والوجود العربي، يريد، فيما يريده، نفخَ الروح في «التطبيع» الذي يواجه مقاومة ضارية على أرض مصر العروبة.

واليوم، يدخل دعاة أدب الثورة المضادة معركة التطبيع علناً، بعد انكشاف الانعزالية ورموزها، مصادرة للوعي القومي والحصانة الذاتية. إنَّ مقاومة دعوة الانعزاليّين إلى التطبيع هي معركة الثقافة العربية الراهنة من أجل المستقبل العربي، وهي معركة تزداد ضراوة في ظروف المتغيرات الدولية العاصفة، وبروز قطب عالمي أعظم وأوحد هو الولايات المتحدة لا يجد غضاضة في تنفيذ استراتيجيّته الكونية الشاملة في صياغة نظام عالمي جديد يخضع لمنطق قوته الغاشمة الضاربة. والأدهى والأمرّ أن هذه الإستراتيجية قد تَيَسَّرَ لها حلفاء من العرب أنفسهم، فانهار النظام العربي، وتأزم الخطاب القومي، وعوقبت أنظمة عربية، ودُفع العرب إلى ما لا يريدون في مؤتمر مدريد، ومفاوضات واشنطن، والبقية تأتي.

(١١) **أدب الثورة المضادة** ـ المصدر نفسه ـ ص ٣٢١.

(١٢) للتعرف على رموز التيّار الانعزالي من جهة، وطبيعة الازدواج الثقافي لدى المثقف العربي في مصر يراجع: النقاش، رجاء: **الانعزاليون في مصر** (بيروت: منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١).

- ٥ -

لقد احترزت السياسة الرسمية في مصر، إثر المد الشعبي الرافض للتطبيع، بأطروحة مفادها أن التطبيع يكون مع السلام الشامل، لأن «إسرائيل» مازالت عدوة للأشقاء العرب، وعلى «إسرائيل» أن تتنازل في مقابل تنازلات العرب ليتحقق السلام. غير أن العدو متعنّت، لا يعطي الأرض ولا يعطي السلام، وتندرج مهمة التطبيع في قولبة العقل العربي وتكييفه لمتطلبات الخضوع والخنوع، وفي إدغام الإمكانية العربية برمتها في عائد «العدو» أرضاً وماء ونفطاً واقتصاداً وفضاء وبشراً، وما يسمى بالأمن أيضاً.

وإذا كان النفوذ الأمريكي المهيمن على النظام الدولي الجديد مصدر قوة «إسرائيل» الرئيسة اليوم، فإن العرب لا يملكون أكثر مما تنازلوا عنه، وذلك بتأثير عوامل كثيرة منها عامل الدفاع عن النفس ومنها الشعور بالكرامة القومية التي تتأذى كثيراً تحت وطأة المتغيرات الدولية والإقليمية، ومنها الحقائق الجغرافية والتاريخية التي لا يمكن تجاهلها إلى آخر المدى، ومنها طبيعة الكيان الصهيوني العنصري التوسعي الإرهابي في قلب الوطن العربي، ومنها التبدل في النظرة الوظيفية لهذا الكيان بالنسبة للولايات المتحدة والغرب عموماً... الخ.

وماتزال القضية الفلسطينية مركز النضال القومي، بالنسبة للدول العربية، ومايزال تمكين الشعب الفلسطيني من السيطرة على مقدراته وأرضه هدفاً مباشراً للنضال القومي وللتسوية السلمية في الوقت نفسه. وهذا ما جعل القيادات السياسية العربية تنظر إلى مجمل العملية السلمية على أنها معركة أخرى، وسُمّيتْ معركة السلام في الإعلام العربي.

وفي ظلّ هذه الظروف غير المتكافئة، وفي ظلّ هذا الخلل الاستراتيجيّ الحاصل، يُطرح التطبيع لتوكيد الإذلال والهوان في الوجدان العربي.

ولا يلمس المتتبعون فروقاً في الممارسات الصهيونية بحق عرب ١٩٤٨ أو عرب ١٩٦٧. فلقد أُلغيت الهوية، وأُلحقت الأرض بالأرض، وصار الفلسطينيون «عرب إسرائيل»، وحوصرت الثقافة الوطنية من التربية والتعليم إلى التقاليد الشعبية والآداب والفنون والآثار والعمران.

لقد كانت الثقافة الوطنية قرينة المشروع القومي، وماتزال، وعندما تُداهَمُ بالتطبيع، الذي هو سند المشروع الصهيوني والغربي، فعلينا أن نتنبه للخطر، وأن نواجه التطبيع القائم ـ بصورة مباشرة وعلنية، أو بصورة غير مباشرة وغير علنية ـ التطبيعَ القادم، الذي يسوَّغُ له بأشكال متعددة لاستعباد العرب.

الآن وأكثر من أي وقت مضى، نؤكّد على مخاطر التطبيع على الثقافة العربية والنضال العربي، وضرورة مجابهته مؤسسات وأفراداً وفكراً وممارسة على مختلف المستويات ووسائل التعبير والإعلام.

لقد كانت ندوة «الفعل العربي المقاوم» التي عُقدت في رحاب اتحاد الكتّاب العرب (دمشق ١٩٨٩) فرصة أخرى للتأمل والحوار المجدي والفعّال بين الأدباء العرب في سورية ولبنان حول القضايا المؤرقة لوجداننا فيما تثيره قضية المقاومة والتطبيع. فالتطبيع هو فعل مضاد ومعاد للوجود العربي برمته، يندرج في مسائل الفعل العربي المقاوم حِدّة وحساسية، ويستدعي قيام جبهة ثقافية عربية في مواجهة التطبيع وتصعيد المقاومة الثقافية للعدو الصهيوني داخل الأرض المحتلة وخارجها، تستند إلى مبادئ وأسس من بينها:

١ ـ إن التطبيع لا يأخذ أشكالاً مباشرة، فقد دلّت وقائع التاريخ القريب والمعاصر أن للتطبيع مقدماته ورموزه وتبدلاته ونهجه بعد ذلك، لأن التطبيع يعني اختراق الثقافة القومية بقبول كيان غريب هو العدو وعقيدته وأفكاره وممارساته. ومعركة الثقافة القومية الإنسانية بطابعها لا تقبل طوابع أخرى زائفة ومضللة وهجينة تؤدي إلى الخيانة والانهزامية والاستسلام وتدمير المناعة الذاتية.

ومن هنا تختلف مقدمات التطبيع وتتبدل رموزه، ولكن استمراره كامن في نهجه المعادي للثقافة العربية الحقة في بناء الذات القومية. إن الانعزالية في هذا الإطار وجه من وجوه معاداة الثقافة العربية يخدم نهج التطبيع، مثلها مثل النزعات العدمية الأخرى.

٢ ـ برهنت تجربة «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية في مصر» ضد التطبيع عن ذلك المركب المعقد والصعب للمقارنة الثقافية في رفض التبعية ونفي القيم الهابطة، والتباس الموقف الداخلي في مواجهة التطبيع، ولعلنا نشير هنا إلى مثال واحد هو التغيرات في الموقف الفلسطيني والمباركة العربية الصامتة أو المعلنة للتطبيع والتفريط وسياسة التنازلات التي شهدها النظام العربي المنقسم والتابع في أجزاء كثيرة منه، حتى قيل: «إننا لسنا أكثر ملكيّة من الملك، فإذا

كانت القيادة الفلسطينية الآن تقبل التطبيع فلا معنى للمقاطعة».

ولعل الالتفاف على المؤتمر الاستثنائي لوزراء الثقافة العرب بدمشق عام ١٩٧٩، لمواجهة ثقافة التطبيع والغزو الصهيوني لمصر العربية ونتائجه في مهده دليل آخر على الصمت العربي المبكر إزاء مخاطر هذه المعركة الراهنة.

٣ ـ الكشف عن ظاهرة التبعية الثقافية والإعلامية لأنها في أساس الدعوة إلى التطبيع. وكانت لجنة الدفاع عن الثقافة القومية قد قامت بنشاطات واسعة لنشر برامجها وإعلاء شأن القيم التي تدافع عنها، ومن قنوات اتصالها بالجماهير مجلّة **المواجهة** توكيداً على سخونة القضية وتأثيراتها المباشرة على مجمل العمل القومي العربي. ومن أبرز الموضوعات التي عنيت بها موضوعان أساسيان، كما تشير أعداد **المواجهة** هما الثقافة الوطنية في مواجهة التبعية أولاً، ورفض التطبيع الثقافي والعلمي مع العدو الصهيوني ثانياً.

٤ ـ أهمية وعي معركة التطبيع على أنها وعيٌ للذّات القومية والدفاع عنها في مواجهة التبعية، وفي توكيد الأصالة الحضارية الثقافية، وفي توكيد استعادة الأدوار الحيّة والنظيفة والمشرفة للثقافة في إضاءة دروب الحياة وإثراء الوجدان الإنساني بالقيم الباقية.

٥ ـ التوكيد على أن ازدهار الثقافة القوميّة مرهون بتجليات الممارسة القومية في إطارها السياسي لكونها تعبيراً صادقاً عن أحلام الجماهير العريضة في الوحدة القومية والتقدُّم. وقد عكس تراجع الخطاب القومي العربي في العقود الثلاثة الأخيرة الأزمة المستحكمة في حركة التحرر العربي، الأمر الذي أنعش النشاط الثقافي التخريبي المعادي للأمة العربية، وأتاح للقوى المعادية فرض الغزو الثقافي الإمبريالي الصهيوني، ووفر مناخاً للتطبيع.

٦ ـ التطبيع معركة راهنة ومستمرة ضد نهج خبيث معاد لأهداف الأمة العربية وتطلعاتها في تحقيق مشروعها المستقبلي، هو اليوم نهج التسوية والاستسلام والتفريط، ولا يغزنّنا بعد ذلك تبدلات التطبيع وتلون وجوهه واختلاف رموزه.

دار **الآداب**، رائدة الأدب الياباني المعرَّب، تقدِّم للقرَّاء العرب أحد عشر عملاً أدبيّاً يابانيّاً:

يوكيو ميشيما: البحَّار الذي لفظه البحر (ترجمة عايدة مطرجي ادريس).
عطش للحبّ (ترجمة محمد عيتاني).
ثلج الرَّبيع (ترجمة كامل يوسف حسين).
الجياد الهاربة (ترجمة كامل يوسف حسين).
معبد الفجر (ترجمة كامل يوسف حسين).

ياسوناري كاواباتا: حزن وجمال (ترجمة د. سهيل ادريس).
الجميلات النائمات (ترجمة ماري طوق).

جونيتشيرو تانيزاكي: فتاة اسمها ناوومي (ترجمة فكري بكر).
التاريخ السرِّي لأمير موساشي (ترجمة كامل يوسف حسين).

كينزابورو اوي: علّمنا أن نتجاوز جنوننا (ترجمة كامل يوسف حسين).

كوبو آبي: امرأةٌ في الرِّمال (ترجمة كامل يوسف حسين).